

## شيء من قرأت العراق الحضاري

**الثورة** الزراعية او ثورة "إنتاج القوت" بدأها <sup>الإنسان</sup> انصافنا العراقي، هنا قبل اكثر من عشرة آلاف سنة .. وتوصل <sup>الإنسان</sup> الى إنتاج قوته بنفسه، يعد اخطر انقلاب في حياة البشرية .. بهذا الإنجاز وضع فلاحو <sup>بلاد</sup> الرافدين الأوائل، نهاية عهد من الحياة البدائية المتسمة بالسعي وراء الحيوان لصيده، والتقاط ما في الطبيعة من ثمر ونبات، يسد بهما الإنسان جوعه.

إن تحقق إنتاج الغذاء، وتدجين الحيوان من قبل سكان العراق الأوائل، قادهم الى الالتصاق بالأرض، والاستقرار قرب حقولهم وحيواناتهم، وبذلك نشأت أولى تجمعات وقرى الإنسان في التاريخ، وفيها حقق انساننا الأول معرفته، ولأول مرة في العالم، بعدد من التقنيات والفنون اللازمة لحياته المستقرة .. فجانبا معرفته الأولى في البناء والتشييد، تعلم صناعة الفخار والحياكة والسلال. ومن الطين انتج نماذج الأولى من الأشكال آدمية والحيوانية، وبذلك عرفنا <sup>عراق</sup> الفن.

وبعد أن أدرك الإنسان أهمية الأرض بالنسبة له، واعتماده الرئيس في العيش على خيراتها، قدسها، ورمز لها بتمائيل دقيقة الصنع، شبيهة بالنساء الحوامل، عنوان الخصوبة والولادة وتجدد الحياة، فصارت الأرض، والأم رمزها، معبودتهم الأولى. <sup>عندما</sup> توصل فلاحو العراق، إذن الى نواة العقيدة الدينية.

لقد استمرت عبادة "سيدة الأرض والخصب" لأجيال عديدة لاحقة، فعرفت بعد مجيء التدوين باسم 'انانا' عند السومريين، كما عرفها الاكديون، ومن ثم البابليون والآشوريون باسم 'عشتار'.

تطور العديد من تلك القرى، خلال الألف الرابع قبل الميلاد في شمالي ووسط وجنوبي <sup>الأرض</sup> الرافدين الى نواة لكثير من المدن، اشتهرت في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، كحواضر مزدهرة للعراق القديم، في عصوره التاريخية التالية، مثل مدن 'نينوى'، 'أشور'، 'هيت'، 'كيش'، 'بابل'، 'الجش'، 'أور'، 'الوركاء'، وقلاع الموصل واربيل وكركوك وتلعفر وغيرها.

وفي مدن العراق الأولى هذه، كانت حضارة السومريين، الحضارة العريقة، قد أخذت تزدهر؛ بعد أن شهدت قرى عصر الوركاء، الواسعة، بدايات نشوئها وتطورها في ميادين العمارة الدينية والتذكارية الفخمة، والنحت بنوعيه المجسم والبارز، والأختام الأسطوانية، واكتمال تطور دولا ب الفخار، وانتشار استخدامه، وصنع الأواني من النحاس والفضة، وذيوع استعمال الذهب للحلي.

وتوجت نهايات عصر الوركاء، بمعرفة الكتابة، والتي كانت في أول أمرها صورية محضة. إننا نجد بدايات هذه الكتابة، في نظام مبسط للعد، ابتكره سكنة قرانا الأوائل منذ أكثر من ثمانية آلاف سنة، واستخدموه في تعاملهم اليومي.

وقد تطورت استخدامات صور الأشياء، بمرور الزمن، الى رموز مجردة، تطبع على الطين، بقلم من القصب أو المعدن، له راس يشبه راس المسمار، لهذا دعيت تلك الرموز من قبل الباحثين بـ 'الكتابة المسماوية'.

وقد هذبت هذه الكتابة، وكثر استعمالها في مختلف الشؤون الحياتية، وبدخول انساننا العراقي في عالم الكتابة والتدوين، صار يدون أفكاره ومعتقداته بالكون والآلهة والحياة، على شكل قصص وأساطير وملاحم وحكم وأمثال، بالخط المسماوي.

والقصص والأساطير والملاحم السومرية، هي أقدم أنواع الأدب المدون التي عرفها العالم، وقد تأثرت بها آداب المناطق المجاورة ومعتقداتها وفنونها.

لقد أثبتت بحوث اللغة السومرية، إن الفضل يعود للسومريين، أصحاب حضارة العراق الأولى، في وضع أسس الكثير من المعارف والعلوم، والتربية، والتشكيلات السياسية، المعمول بها حالياً، فمثلاً، هيئة شوري دولة مدينة الوركاء، كانت مكونة من مجلسين، أحدهما للشيوخ والآخر للرجال القادرين على القتال؛ إنه أقدم نموذج للنظام البرلماني في العالم القديم.

كما أن المدرسة التي عرفت في زمن السومريين باسم بيت الرقم 'إي-توبا' هي الأجرى أيضاً النموذج الأول لكل أشكال المعاهد التربوية والعلمية اللاحقة. وفي القضاء وقفنا على أقدم قضية قضائية في التاريخ يجلس فيها محلفون للإسهام في إصدار قرار الحكم عرضت أمام محكمة مدينة 'نقر' في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.

وفي أمور الصيدلة وصلتنا أقدم وصفة طبية تضم اثني عشر نوعاً من العلاج، دونها طبيب سومري كان يمارس مهنته في مدينة 'اور' أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. وفي مدينة 'نقر' أيضاً عثر على أقدم تقويم زراعي يضم العديد من التوصيات، والتعليمات الزراعية، الخاصة بإعداد الحقل وموعد البذار، وبعض أمور الري والحصاد، وضعه فلاح عراقي على رقم طيني، ضم خمسا وثلاثين فقرة.

ومن العراق القديم كذلك، جاءتنا أولى نماذج أدب البطولة والفروسية والحكمة، 'ملحمة كلكامش'.

وفي زمن السومريين أيضاً، برزت ولأول مرة في التاريخ، حدود الملكية الشخصية وتوضحت العلاقات الاقتصادية بين الأفراد والدولة، وبين الأفراد أنفسهم، واقتضى هذا كله وضع إصلاحات اجتماعية واقتصادية في وقت مبكر، خلال منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، كانت هي النواة الأولى للتشريعات القانونية في حياة البشر والتي ظهرت بعد ذلك في أواخر الألف الثالث ذاته.

ولا أحد يستطيع أن ينسى الشريعة القانونية الكاملة للقائد البابلي العظيم "حمورابي"، ومسئلته الشهيرة التي ضمت ٢٨٢ مادة قانونية، عالجت مختلف نواحي الحياة اليومية.

وتأتى أهمية عصر الإمبراطورية الآشورية، من كثرة المخلفات التي أقامها الآشوريون في عواصمهم، بقصورها الفخمة ومعابدها الكبيرة، وزقوراتها الشاهقة، وأسوارها وبواباتها، ومئات الأمتار من المنحوتات والرسوم الجدارية الملونة، والتمائيل الآدمية والحيوانية والثيران المجنحة، التي تجمع بين حكمة الإنسان وذكائه، وقوة الثور وجلده، ومسلات مختلفة الحجم والأشكال.

والى القائد العظيم نبوخذ نصر "٦٠٥-٥٦٢ ق.م." يرجع الفضل في اجتناب بقايا الكيان العبري المغتصب لأجزاء من فلسطين العربية، وتحرير القدس بثلاث حملات موفقة.

وقد قام 'نبوخذ نصر' بأعمال عمرانية واسعة في العاصمة بابل، وفي الكثير من مدن العراق القديم، فصارت بابل عروسا للعالم القديم، ومحجة لطلاب العلم والثقافة.

والى جانب كونه قائدا عسكريا فذا، ومصالحا طموحا، كان مشرعا عادلا، وفوق هذا، كان 'نبوخذ نصر' ملكا ورعا، يخشى الآلهة ويحرص على رضاها.

- وبعد وفاته، لم يظهر قائد مقتدر محنك، قادر على الحفاظ على استقلال البلاد وسيادتها، فكبت بابل في عام '٥٣٩ ق.م.' أمام الغزو الاخميني الفارسي الوحشي، الذي حاول عبثا طمس معالم ارثها الحضاري الضخم. كانت كيوته نتيجة عوامل داخلية، وأخرى خارجية، أبرزها غياب قيادة الدولة عن العاصمة بابل طويلا، وخيانة بعض الرجال، ودسائس اليهود واتصالهم بالعدو المتربص على الحدود الشرقية.

شهدت ارض العراق بعد ذلك، موجات من الغزاة مرت بها واختفت، فبعد الفرس الاخمينيين جاء الإسكندر المقدوني ثم "السلوقيون" من بعده، ثم تلاهم الفرس الفرثيون، وأخيرا الفرس الساسانيين، وبرغم تلك الأحداث الموجهة ووطء الغزاة الثقيل، بقيت هامة العراقيين عالية لا تتحني لظلم ظالم ولا ترهبها سطوة محتل غاز فكانت الثورات تترى وتتعاقب هنا وهناك في ارض بابل وفي غيرها من حواضر العراق القديم. وقد نال العراق بسبب ذلك الشيء الكثير من أذى الفرس الساسانيين، فاسقطوا دولة الحضرة العربية ودمروها تدميرا شاملا أحالها الى أطلال، كما اغتالوا "النعمان بن المنذر" آخر ملوك الحيرة واصلبهم عودا في محاولة منهم لتشتيت القبائل العربية وفض التفافها حول زعامة دولة الحيرة العربية.

لقد كان اغتيال "النعمان" الشرارة التي أوقدت نار الحرب والمواجهة الشاملة، ولأول مرة، بين عرب العراق وعلى رأسهم بنو شيبان وبين الغزاة الساسانيين، فكانت واقعة "ذي قار" المشهورة التي تحققت فيها للعرب نصر عظيم هيج في نفوسهم مشاعر الاحترام للعراقيين الذين نقوا بنصرهم الرائع في هذه الواقعة، المسمار الأول في نعش الإمبراطورية الساسانية. فقد خلد الرسول الكريم (ص) يوم ذي قار المشهور بحديثه الشريف: "هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا".

بعد ذلك بسنوات قليلة تخلص العراق نهائيا من التسلط الأجنبي، بتحريره على أيدي القوات العربية الإسلامية، واخذ ينهض نهضته الشاملة، حين أسست فيه مدن كبرى مثل البصرة والكوفة وواسط، وعمرت مدن قديمة كثيرة كالموصل والانببار وأصبحت مراكز تشع بعلم الدين واللغة والفلسفة.

- وفي زمن العباسيين صار العراق قلبا للدولة العربية الإسلامية الكبرى كما صارت بغداد، بعد تأسيسها واتساعها، حاضرة لدولة العرب المسلمين في ازهي عصورها، يحج إليها طلاب العلم والأدب والفن من كل حذب وصوب. وبلغت عصرها

الذهبي في زمن "الرشيد" وابنه "المأمون" تعمر بثتى الفعاليات وتزخر بمباهج الحياة رائدها العدل وإرضاء الضمير ودأبها استقصاء الحقائق من علمية وفلسفية ودينية وانصب إليها نتاج العالم من نفائس البضائع وكنوز الأرض، وبلغها كل جديد من رأي وابتكار. وبلغ العراق في هذا العصر ما لم يبلغه سابقا في تاريخه الطويل الحافل بالأمجاد. ولدينا من آثاره إن كان في بغداد أو خارجها، الشيء الكثير. وهذه سامراء التي شيدها الخليفة "المعتصم" لتحتل رقعة واسعة من الأرض تبلغ الأربعين كيلومترا طولا وبمعدل ثلاثة كيلومترات عرضا بامتداد الضفة الشرقية لنهر دجلة. فضلا عن القصور القائمة على ضفته الغربية، وقد اتخذها العباسيون عاصمة لهم ما يقرب من خمسة وأربعين عاما.

إن خطط المدينة شاهد على حسن هندستها ورفيها، ففيها شوارع عريضة مستقيمة وقصور واسعة كثيرة مزينة بأجمل الزخارف وأدقها، ومساجد يحار المرء في سعتها ومنها جامع "الجمعة" الذي شيده المتوكل وطوله ٢٤٠ مترا (من الداخل) وعرضه ١٦٠ مترا يحيط به جدار سميك من الآجر، وفي داخله ٥٨٠ عمودا من المرمر لدعم السقوف، وأمامه المئذنة المعروفة بـ "الملوية" التي تدل ضخامتها وبساطتها على عظمة العصر وصفاء الفكر والدعوة إلى الإيمان.

ودارت عجلة الزمن وتكالب الدخلاء والطامعون والغزاة من أعاجم ومغول على دولة العرب وعاصمة الخلافة بغداد فنال الأمة الكثير من الأذى على أيديهم. وأعقب ذلك كله استيلاء العثمانيين على العراق، من جملة ما استولوا عليه من أرض العرب. ومع قسوة حكمهم وتخلفه وجشعه ومحاولاتهم اليانسة لطمس المعالم الوطنية والقومية للعراق وبقية أجزاء الوطن العربي إلا أن العراق بقى صامدا، كما بقيت كل أرض العرب، بأرضه وانسانه وتراثه الحضاري الضخم وقيمه الروحية والإنسانية. وفي الآخر، وبعد مرور ما يقارب من ثلاثة قرون على الاحتلال العثماني، تحرر العراق في أعقاب الحرب

العالمية الأولى واخذ ينهض حديثاً من كبوته بتأسيس الحكم الوطني فيه في أعقاب ثورة العشرين. وظل شعب هذا الوادي العريق يكافح لينال كامل حريته ويحقق طموحاته الوطنية والقومية ويمتلك ناصية إرادته ويهيمن على ثروته وموارده، وتحقق له ذلك في صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨ حين اندفع بثورته العارمة التي فجرتها قواته المسلحة، ليكتسح التخلف والتبعية ويزيل الإقطاع ويعلن الجمهورية\*\*

الدكتور بهنام أبو الصوف